

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

إن القرآن الكريم كتاب الله تبارك وتعالى أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم معجزة عظمى وقرآنًا يتلى، تولى حفظه رب العالمين جل جلاله، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:8]، فالقرآن محفوظ في السطور ومحفوظ في الصدور، أعظم معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، معجز أعجز البلغاء أن يأتوا بمثله، تحدى كفار قريش وهم الفصحاء أن يأتوا بمثله، مع أنه مركب من الحروف العربية (أ، ب، ت، ث، ...) التي يتكلم بها أهل العربية، وألفاظه ومفرداته موجودة في كلام العرب، لكن الكل يعجز عن أن يأتي بمثله أقصر آية منه.

فسبحان من هو كلامه، يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: " محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فاتاهم بكتاب من الله، عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدًا" [1]. ويقول مصطفى صادق الرافعي: "أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم، فهي كيفما أدرتها وكيفما تأملتها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ومن أي جهة وافقتها؛ فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب؛ وتراها تتساير إلى غاية واحدة، وتسبح في معرض واحد، ولا يمنعها اختلاف حروفها وتباين معانيها وتعدد مواقعها من أن تكون جوهرًا واحدًا في الطبع والصقل، وفي الماء والرونق؛ كأنما تتلامح بروح حية ما هو إلا أن تتصل بها حتى تمتزج بروحك وتخالط إحساسك فلن تكون معها إلا على حالة واحدة.

تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفقة، وتفرق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في

طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحًا تداخلك بالطرب، وتُشرب قلبك الروعة، وتنتزع من نفسك حس الاختلاف الذي طالما تدبرت به سائر الكلام، وتصحفت به على البلغاء في ألوان خطابهم وأساليب كلامهم وطبقات نظامهم، مما يعلو ويسفل، أو يستمر وينتقض، أو يأتلف ويختلف... إلى غيرها من آثار الطباع الإنسانية فيما يعتربها من نقص أو كلال أو غفلة، ومما هو صورة في الكلام لوجوه اختلافها بالقوة والضعف في أصل الخلقة وطريقة النشأة... [2].

تحدي فصحاء اللغة

فقد ورد في كتاب الله تبارك وتعالى أكبر تحدٍّ لقريش وهم أهل اللغة والفصاحة البلغاء أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال رب العزة والجلال: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء 88]، ففي هذه الآية يقول الله: قل لهم يا محمد وأخبرهم بأنه لو اجتمع الإنس والجن واتفقوا على أنهم يأتوا بمثل هذا القرآن فإنهم لن يستطيعوا، ولو كان بعضهم لبعض مناصرًا، يقول البغوي رحمه الله: " قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ عَوْنًا وَمُظَاهِرًا.

نَزَلَتْ حِينَ قَالَ الْكُفَّارُ: لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَالْقُرْآنُ مُعْجَزٌ فِي النَّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْغُيُوبِ وَهُوَ كَلَامٌ فِي أَعْلَىٰ طَبَقَاتِ الْبَلَاغَةِ لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْخَلْقِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَوْ كَانَ مَخْلُوقًا لَأَتَّوَا بِمِثْلِهِ" [3]، ويقول السعدي رحمه الله: " وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدرُوا عليه. ووقع كما أخبر الله، فإن دواعي أعدائه المكذبين به، متوفرة على رد ما جاء

به بأي: وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة، فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك لفعلوه، فعلم بذلك، أنهم أذعنوا غاية الإذعان، طوعًا وكرهًا، وعجزوا عن معارضته.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه، أن يعارض كلام رب الأرض والسموات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مداً، والأشجار كلها أقلام، لنفذ المداد، وفنيت الأقلام، ولم تنفذ كلمات الله" [4].

عجز العرب

قال أبو جعفر النحاس: "تحدّاهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فعجزوا عنه من جهات: إحداها: وصف القرآن الذي أعجزهم أن يأتوا بمثله، وذلك أن الرجل منهم كان يسمع السورة أو الآية الطويلة ثم يسمع بعدها سمراً أو حديثاً فيتباين ما بين ذينك من إعجاز التأليف أنه لا يوجد في كلام أحد من المخلوقين أمر ونهي ووعظ وتنبيه وخبر وتوبيخ وغير ذلك ثم يكون كلاً متألّفاً، ومن إعجازه أنه لا يتغيّر، وليس كلام أحد من المخلوقين يطول إلا تغيّر بتناقض أو رداءة، ومن إعجازه الحذف والاختصار والإيجاز ودلالة اللفظ اليسير على المعنى الكثير، وإن كان في كلام العرب الحذف والاختصار والإيجاز فإنّ في القرآن من ذلك ما هو معجز، نحو قوله جلّ وعزّ: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: 58] أي إذا كان بينك وبين قوم عهد فخفت منهم وأردت أن تنقض العهد فانبذ إليهم عهدهم أو قل قد نبذت إليكم عهدكم أي قد رميت به لتكون أنت وهم على سواء في العلم فإنك إن لم تفعل ذلك ونقضت عهدهم كانت خيانة، والله لا يحبّ الخائنين" [5].

ثم تحداهم بعد أن عجزوا عن الإتيان بمثله بأن يأتوا بعشر سور من مثله كما في قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ [سورة هود: 13] ، أي: إن قلتم بأن محمداً افتراه من عند نفسه فأتوا بعشر سور مثله، واستعينوا بمن استطعتم من دون الله عز وجل إن كنتم صادقين، بل قال سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة يونس: 38]، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: " يقول تعالى ذكره لنبية محمد صلى الله عليه وسلم كفاك حجة على حقيقة ما أتيتهم به ودلالة على صحة نبوتك، هذا القرآن من سائر الآيات غيره، إذ كانت الآيات إنما تكون لمن أعطيها دلالة على صدقه، لعجز جميع الخلق عن أن يأتوا بمثله، وهذا القرآن جميع الخلق عجزه عن أن يأتوا بمثله. فإن هم قالوا: افتريته: أي اختلقته وتكذبتة. ودل على أن معنى الكلام ما ذكرنا قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ إلى آخر الآية، ويعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أي يقولون افتراه وقد دللنا على سبب إدخال العرب "أم" في مثل هذا الموضع فقل لهم: يأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مفتريات، يعني مفتعلات مختلقات، إن كان ما أتيتكم به من هذا القرآن مفترى، وليس بآية معجزة كسائر ما سألته من الآيات" [6].

وقال ابن سعدي رحمه الله: " ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن؟

فأجابهم بقوله: ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنه قد افتراه، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات" [7]. ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله كما في قوله: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿ [البقرة: 23-24]، أي إن كنتم في شك مما أنزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ مِنْ مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَعَارِضُوهُ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَىٰ ذَلِكَ

بِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ، وَ: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾
 أَعْوَانَكُمْ أَيُّ: قَوْمًا آخِرِينَ يُسَاعِدُونَكُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَقِيلَ: شُرَكَاءَكُمْ أَيُّ اسْتَعِينُوا
 بِأَلِهَتِكُمْ فِي ذَلِكَ يَمُدُّونَكُمْ وَيَنْصُرُونَكُمْ، وَقِيلَ: نَاسٌ يَشْهَدُونَ بِهِ يَعْنِي: حُكَّامُ
 الْفُصَحَاءِ [8].

قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر أن المراد بقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ القرآن
 ورجحه ثم قال: "لأن التَّحْدِيَّ عَامٌّ لَهُمْ كُلَّهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ أَفْصَحُ الْأُمَّمِ، وَقَدْ تَحَدَّاهُمْ
 بِهَذَا فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً، مَعَ شِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ لَهُ وَبُغْضِهِمْ لِدِينِهِ، وَمَعَ
 هَذَا عَجَزُوا عَنِ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ "وَلَنْ":
 لِنَفْيِ التَّأْيِيدِ أَيُّ: وَلَنْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدًا. وَهَذِهِ -أَيْضًا- مُعْجَزَةٌ أُخْرَى، وَهُوَ أَنَّهُ
 أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُعَارِضُ بِمِثْلِهِ أَبَدًا وَكَذَلِكَ وَقَعَ الْأَمْرُ، لَمْ يُعَارِضْ مِنْ لَدُنْهُ
 إِلَى زَمَانِنَا هَذَا وَلَا يُمَكِّنُ، وَأَنَّى يَتَأْتَى ذَلِكَ لِأَحَدٍ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ خَالِقِ كُلِّ
 شَيْءٍ؟ وَكَيْفَ يُشْبِهُ كَلَامَ الْخَالِقِ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ؟!

وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَجَدَ فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الإِعْجَازِ فُنُونًا ظَاهِرَةً وَخَفِيَّةً مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ
 وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرَّكِيبُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ
 لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُود: 1]، فَأَحْكَمَتْ أَلْفَاظُهُ وَفُصِّلَتْ مَعَانِيهِ أَوْ بِالْعَكْسِ عَلَى
 الْخِلَافِ، فَكُلٌّ مِنْ لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ فَصِيحٌ لَا يُجَارَى وَلَا يُدَانِي، فَقَدْ أَخْبَرَ عَنِ
 مَغِيبَاتٍ مَاضِيَةٍ وَأَتِيَةٍ كَانَتْ وَوَقَعَتْ طَبَقَ مَا أَخْبَرَ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَأَمَرَ بِكُلِّ خَيْرٍ،
 وَنَهَى عَنِ كُلِّ شَرٍّ كَمَا قَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115]
 أَيُّ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ، فَكُلُّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَعَدْلٌ وَهُدًى لَيْسَ
 فِيهِ مُجَازَفَةٌ وَلَا كَذِبٌ وَلَا افْتِرَاءٌ كَمَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ
 الْأَكْذِيبِ وَالْمُجَازَفَاتِ الَّتِي لَا يَحْسُنُ شِعْرُهُمْ إِلَّا بِهَا، كَمَا قِيلَ فِي الشُّعْرِ: إِنَّ
 أَعْدَبَهُ أَكْذَبَهُ،

وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَجَمِيعُهُ فَصِيحٌ فِي غَايَةِ نِهَايَاتِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ
 تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا مِمَّنْ فَهَمَ كَلَامَ الْعَرَبِ وَتَصَارِيفَ التَّعْبِيرِ، فَإِنَّهُ إِنْ تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَهُ
 وَجَدْتَهَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ، سَوَاءً كَانَتْ مَبْسُوطَةً أَوْ وَجِيزَةً، وَسَوَاءً تَكَرَّرَتْ أَمْ لَا
 وَكُلَّمَا تَكَرَّرَ حَلَا وَعَلَا لَا يَخْلُقُ عَنِ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَمَلُّ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَإِنْ أَخَذَ
 فِي الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ جَاءَ مِنْهُ مَا تَشْعُرُ مِنْهُ الْجِبَالُ الصُّمُّ الرَّاسِيَاتُ، فَمَا ظَنُّكَ

بِالْقُلُوبِ الْفَاهِمَاتِ، وَإِنْ وَعَدَ آتَى بِمَا يَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَالْأَذَانَ، وَيُشَوِّقُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَمُجَاوِرَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، كَمَا قَالَ فِي التَّرْغِيبِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجْدَةِ: 17]، وَقَالَ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزُّخْرَفِ: 71]. وَقَالَ فِي التَّرْهِيْبِ: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 68]، ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعَلَّمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الْمُلْكِ: 16-17]، وَقَالَ فِي الزَّجْرِ: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: 40]، وَقَالَ فِي الْوَعْظِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ [الشُّعْرَاءِ: 205-207] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْحَلَاوَةِ، وَإِنْ جَاءَتْ الْآيَاتُ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَمْرِ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ حَسَنٍ نَافِعٍ طَيِّبٍ مَحْبُوبٍ، وَالنَّهْيِ عَنِ كُلِّ قَبِيحٍ رَذِيلٍ دَنِيءٍ" [9].

فكلام الله تبارك وتعالى لا يشبع منه العلماء، ولا يبلى من كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الصراط المستقيم، وحبل الله المتين، لو أنزل على الجبال الشوامخ لخشعت وتصدعت من خشية الله، قال الله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]، جعلنا الله من أهل القرآن، العاملين به الواقفين عند حدوده، ونسأل الله أن يجعلنا من التاليين له آناء الليل وأطراف النهار، والحمد لله رب العالمين.

الإشارات المرجعية:

١. تفسير ابن كثير (2/ 45).
٢. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: 166).
٣. تفسير البغوي (5/127).

٤. تفسير السعدي (ص: 466).
٥. إعراب القرآن للنحاس (2 / 283).
٦. تفسير الطبري (12 / 343).
٧. تفسير السعدي (ص: 378).
٨. انظر: تفسير ابن كثير (1/199)، بتصرف.
٩. تفسير ابن كثير (1 / 199-200)، بتصرف يسير.

المصدر:

موقع الألوكة

الكلمات المفتاحية:

#القرآن-الكريم

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.

<https://murabet.com>